الفكر في الحضارة الفارسية

الفكر الفارسي قبل الزرادشتية

فتحت بلاد فارس عيونها على الحضارة بعد شعب مصر وبلاد ما بين النهرين. حيث جمعت بين تراث بلاد ما بين النهرين وما انتجه الآريون. نتج عن هذه التوليفة معتقدات دينية مميزة تتمثل في عبادة النار التي كرستها كتبهم المقدسة الأفستا والفيدا. أثّر الايرانيون بدورهم روحيا على تركستان والهند والصين ومصر واليونان وروما، دون أن ننسى تأثيرهم على أوروبا الحديثة التي تدين للإيرانيين بجزء من فكرها (نيتشه مثلا).

الشعب الآري الذي ترك بلاده نتيجة القحط الذي أصابه باحثا عن موطن آخر جزء منه ذهب إلى الهند وكانت الحضارة الهندية، وجزء آخر منه توجه إلى بلاد الفرس حوالي سنة 1000 ق م واستوطن هناك. كان الفرس قبل زرادشترا يعبدون الظواهر الطبيعية وهو ما كان سائدا في أوساط الطبقة الشعبية التي عبدت العناصر الأربعة: النار، والهواء، والماء والتراب، وباقي الظواهر الطبيعية الأخرى. في القديم كان الفرس يقدمون القرابين البشرية للآلهة، ومع مرور الوقت تم استبدال هذه القرابين البشرية بالقرابين الحيوانية. ويبدوا أن القرابين الحيوانية أيضا أثقلت كاهل الشعب الفارسي القديم لأنها كانت مكلفة وبالخصوص أن الطبيعة كانت قاسية عندهم. ولما جاء زرادشترا ألغى هذه القرابين وهو الآمر الأمر الذي أرضى الفارسيين كثيرا. ومن ناحية العلاقات الاجتماعية كان زاوج المحارم مباحا عند الفارسيين القدامى.

أما الطبقية الراقية فكانت تعبد آلهة مختلفة فالعديد من الملوك كانوا يعبدون الاله ميترا اله العدالة وحارس النظام الكوني والبشري، وهو إله متداول أيضا في الهند وهذا التشابه يعود في الأصل إلى وحدة الشعب الآري الذي اجتاح إيران والهند على السواء، كما عبدوا الإله أورووانا الذي يمثل النظام الأخلاقي، ويعرف عند اليونانيين بأورانوس وعند الهنديين القدامى المذكور في الفيدا ب آرونا. ولكنهم كانوا يؤمنون بوجود الآلهة الكبرى وهو أهورامزدا وهو اله روحي ولا يملك تجسيدا في الطبيعة، كما أنه لا توجد له معابد خاصة، وإنما كل الأرض هي مكان للعبادة، وتعد النار رمز له. ثم جاء بعد ذلك زرادشترا فعمل على تأسيس ديانته على هذا الاله ووضع طقوس وتعاليم تحدد طريقة عبادته.

زرادشترا: مولده ونشأته:.....

تعاليه:

ذهب زرادشترا إلى أنه أن هناك اله اسمه اهورامازدا (تعني كلمة أهورا الكائن الخارق للطبيعة أو الكائن الإلهي، أما مازدا فتعني الذكي أو الحكيم) خالق العالم والمسؤول عنه وقول بالإله أهورا مازدا لم يكن من ابتداعه بل كان متداولا قبله). إذا كان زرادشترا لم يبدع إلاه أهورامزدا فإنه دعا إلى تنقيحه من المعتقدات الشعوبية التي كانت متوارثة والتي لا تتوافق مع عظمته وقداسته. كانت الزرادشتية ديانة الفارسيين لثلاث مرحل الأولى في مرحلة الملك هيستاسبس والثانية في مرحلة الساسانيين التي امتدت إلى غاية القرن السابع وفي المرحلة الثالثة عندما قدم المسلمون جزء أسلم وجزء آخر ذهب إلى الهند ليواصل معتقه الزرادشتي. حاليا يوجد حوالي 200000 ميئتا ألف معتنق للديانة الزرادشتية موجودون في الهند وايران.

يقدس الزرادشتيون النار لأنها ترمز إلى الاله أهورا موزدا. وعلى الزرادشتي أن يتحلى ب"الفكر السليم والكلام الصادق والسلوك الحسن".

مصادر الديانة الزرادشتية:

يعتبر كتاب "الأفيستا" الكتاب المقدس للزرادشتيين أما معنى هذه الكلمة فهناك اختلاف حولها فإذا كان اشتقاقها من كلمة upasta فإنها تعني البيان أو الأصل، وإن اعتبرناها مشتقة من كلمة "فيد أي يعرف" فإنها تعني الحكمة أو المعرفة. كتب الأفيستا بلغة زاندوست وكتابته لم تكن إلا بعد القرن السادس ميلادي، وأقدم جزء منه يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. في حقيقة الأمر لم يصلنا من الكتب الزرادشتية إلا القليل فجل نصوصها تم اتلافها مع غزو الاسكندر الكبير وبعد ذلك مع الاجتياح الاسلامي. أما لغة الأفيستا فقد كانت اللغة الغاثية وهي لغة محلية.

ومن بين الأقسام التي تتضمنها الأفيستا نذكر:

1- اليسنا (العبادة، الدعاء): وهي مجموعة من الترانيم التي تتضمن الأدعية وسيرة حياة زرادشترا.
2- الونديداد: يتضمن مواضيع مختلفة تتعلق بخلق العالم، ونظام الكهنة الزارادوشتيين، وشرائع وقوانين تتعلق بالزواج والموت...إلخ.
3- ويسبرد: ويضمن مجوعة الأدعية التي توجه إلى الاله أهورامازدا.
4- اليشتات: ويضم الأدعية التي تتلى في الصلوات والقرابين.
5- خرد فستا: ويضم تعاليم شعبية.

خصائص الديانة الزرادشتية:

من الأفكار التي تتميز بها الديانة الزرادشتية أنها تؤمن بفكرة الاله الواحد والعالمي وهي فكرة لم تكن موجودة في ذلك الوقت، فكل المجتمعات والحضارات القديمة كانت تؤمن بآلهة محلية إلا الزرادشتية بشرت بإله واحد، إله كل البشر جميعا.

الفكرة الثانية التي قامن عليها الزرادشتية هي أنها تؤمن أن العالم تسوده قوتان متناحرتان: الخير ممثلة في الإله أهورامازدا والشر ممثلا في أهريمان. وهذا الصراع ينتهي بانتصار الخير على الشر، ومن هذا الجانب تبدوا الزرادشتية ديانة متفائلة مقارنة بغيرها مثل البوذية التي ترى في العالم ألم وشر دائم لا يمكن القضاء عليه إلا من خلال الخلاص من الكارما.

الألوهية في الديانة الزرادشتية:

إذا كانت الديانات القديمة تؤمن بتعدد الآلهة وارتباطها بالظهار الطبيعية فإن الديانة الزرادشتية قلصت عدد الآلهة إلى قوتين الاله أهورا مازدا والاله أهريمان، وهذه الثانية في الحقيقة ليست إلا إلاها واحدا، وهو الاله اهورا مازدا الذي يسموا على الاله اهريمان، فالأول خالد وسرمدي وهو خالق الكون، أما الثاني فهو فان وله بداية، وإذا كان الأول يمثل الخير فإن أهريمان يمثل الشر في الوجود، ووجوده يعود إلى بداية الخلق فحينما خلق الله الكائنات خلقها خيرة، وجود أهريمان ومنه وجود الشر في العالم يعود إلى أنه يمثل الجانب الشرير لهذه المخلوقات الخيرة، أو الصورة السلبية للخير، وإذا كان أهورا مزدا سرمدي ليست له بداية ولا نهاية فإنه محدود في المكان الذي يحده وجود الاله أهريمان.

ذهب زرادشترا إلى أن الاله أهورامازدا لا يتدخل في العالم مباشرة وإنما هناك وسائط تسمى "الكائنات الخالدة القدسية" ويذهب البعض إلى أن عددها ستة تنوب عنه في ذلك وتعبر عن ألوهيته، حتى أن زرادشترا نفسه لم يتصل في بداية الأمر بالإله أهورا مازدا مباشرة وإنما من خلال روح القدس يدعى "فوهومانا" الذي توسط له.

الخلق والنشأة:

الإله أهورامزدا هو موجود بذاته أما الاله أهريمان فهو موجود بغيره الذي خلقه أهورامازدا. ولما خلق العالم الماورائي شرع في ايجاد العالم الأرضي الذي خلقه من النار ومن النار أنشأ الهواء، ومنه أنشأ الماء ومن الماء التراب

وهذه المخلوقات الأربعة هي التي تشكل عناصر العالم الأرضي. ومن هذه العناصر أوجد فيما بعد النباتات والأشجار والحيوانات والانسان وكل الكائنات الأخرى

لما خلق الاله أهورامزدا الإنسان منح له الحرية في التصرف وتقرير أفعاله، فكانت له الحرية في اتباع الخير أهورامزدا أو اتباع الشر أهريمان، وهذه الحرية هي التي تبرر وجود الكذب والسرقة والاعتداء وغيرها من الأفعال الشريرة في الحياة.

من الأمور التي أحدثها زرادشت هو أنه قام بإلغاء كل الطقوس والاحتفالات التقليدية التي تتعارض مع إله أهورامازدا حيث ألغى القرابين الحيوانية، وكل الممارسات السحرية، كما أنكر عليهم شرب عصير الهاوما الذي كان ممارسا منذ العهد الفيدي (وهو عصير مسكر يتناوله الكهنة، وكان العامة يجمعون بول هؤلاء الكهنة الناجم عن شربهم للعصير ويتناولونه). ومن الطقوس التي أبقى عليها تبجيل النار التي يقال أنه مات وهو يؤدي صلاته أمام النار المقدسة. إلا أن النار عند زرادشت لم يكن يتصورها كما كان يتصورها الفارسيون القدامى الذين عبدوها وقدسوها وإنما اعتبرها كتجلي للإله أهورامزدا.

الأخلاق عند الزرادوشتية.

الدناية الزرادشتية هي ديانة أخلاقية بامتياز حيث لم تدعو الإنسان إلى الالتزام بفعل الخير فقط وإنما أيضا إلى تطبيقه ونشره. تقول أحد نصوص الفيستا أن على الإنسان واجبات ثلاث:" أن يجعل العدو صديقا، والخبيث طيبا، والجاهل عالما". ومن هذا القول فإن فلسفة الأخلاق عند الزرادوشتية لا تكمن فقد في فعل الخير وإنما أيضا في نشره وجعل الأخرين يمارسونه، بمعنى لا يكفي فعل الخير وإنما أيضا اصلاح الأشرار ودعوتهم إلى الخير.

ويعتد زرادشت أن الناس في آخر الزمان يمرون على واد من النار بها معادن مذابة، فأما الأخيار فإنهم يمرون بسلامة وأما الأشرار فإنهم يحترقون ويذوبون ويجرفهم الواد وتلك نهايتهم. ويوم الحساب تمر الأرواح على جسر يعبر النار وفي نهاية الجسر باب الجنة فتعرض أعمال الأرواح فإن مالت الحسنات يعبرون الجسر وإن مالت كفة السيئات يسقطون في جهنم.

الزرادوشية بعد زرادوشت:

سادت الزردشتية مدة من الزمن ثم سرعان ما تهاوت مع الاجتياح الاغريقي لها من طرف الاسكندر الأكبر سنة 333 ق م والذي أطاح بالإمبراطورية الفارسية، وانتشرت الثقافة الهلينية في بلاد الفرس إلى غاية القرن الأول

ميلادي حيث سيطر الآرشاقيون (وهم شعب قدم من ايران الشرقية)على بلاد الفرس وامتد حكمهم إلى غاية 226 ميلادي وبعد ذلك أطاح بهم الساسانيون وامتد حكمهم من 226 إلى غاية 651 م وبعدها سقطوا على يد المسلمون.

طيلة هذه المدة طرأت على الزرادشتية عدة تعديلات ومن بينها أن زرادشت لم يعد مجرد نبي ومصلح اجتماعي وديني وإنما أصبح يتمتع عند اتباعه بمنزلة شبه إلهية، نسبت إليه عدت خوارق حول مولده وحول نبوته التي تعود إلى(ثلاثة ألاف سنة قبل مجيئه) حيث أخبرت النبوءة أن نهاية الشياطيين تكون على يده.

لم يتم تنزيه الاله أهورامازدا مثل ما فعل زرادشت وإنما أصبح يجسم ضمن أصنام حجرية وخشبية، و لم يتم توحيده كما فعل زرادشت وإنما ابتدعت آلهة عدة تتقاسم أهورا مازدا الحكم والملك والألوهية. وبذلك فإن التوحيد الذي دعا إليه زرادشت أل في النهاية إلى الوثنية.

ومن الناحية الأخلاقية لم يعد لالتزام بالقوانين والقواعد الأخلاقية التي وضعها أهورامازدا كافيا لنيل النعيم وإنما ابتدعت ممارسات طقوسية للتطهر من الشرور والآثام.

مع ظهور الاسلام واجتياحه بلاد فارس اعتنق العديد من الزرادشتيين الدين الجديد وبقي آخرون على زرادشتيتهم، وبعد قرن من حكم المسلمين بدوا يمارسون القمع على الزرادشتيين ما اضطرهم إلى الرحيل وترك ايران ليستقروا في الهند جنبا إلى جنب مع الهندوس. وبلغ عدد الزاردشتيين اليوم في الهند ما يقارب 200 ألف. لهم عاداتهم ومعتقداتهم وطقوسهم وألبستهم التي تميزهم. أما في ايران موطنهم الأصلي فلم يبقى منهم سوى عشرون الف.

الديانة المانوية:

تعود الديانة المانوية إلى مؤسسها ماني (الذي ولد 215 للميلاد) ويعني الداعية. تقدم لنا هذه الديانة تصورا عن ثنائية تؤمن بوجود إله واله آخر ضده وكلاهما غير مخلوقين. كان دور ماني يتمثل في اشفاء النفوس من خلال عملية التطهير التي تستند إلى المعرفة العقلية.....

ختاما يمكن القول أن إيران قديما أعلت من عبادة النور، وأفكارها امتدت إلى الصين، وسبقت الوضوح الفكري اليوناني. وكانت تؤمن بالمبدأ الأساسي الذي هو واحد ومتعدد. كما أدخلت فكرة الخلاص في الدين (وهذا ما نجده عند زرادشت، ويسوع، وماني) وفتحت المجال لظهور ثيوديسية حقيقية أو نظرية الألوهية.